قضايا

تتعطّل مَلَكَة الحوار والإنصات بين الجزائر والرباط، ويتراجع مستوى الثقة في الآخر، وتغلب صناعة العداء المتخيّل على يقينية الجزائريين بمواقف المغاربة وثقة المغاربة بجيرانهم الجزائريين، فتخرُج العلاقات الثنائية من وضعها الطبيعي قرونا

غياب قنوات الحوار يسهم في تباين التأويلات

مناخ التصعيد بين الجزائر والمغرب

محمد الشرقاوي

لافتة «منطقة عسكرية» في منطقة وجدة المغربية على الحدود مع الجزائر 3/ 11/ 2021 (فرانس برس)

ثمّة قاعدةٌ متداولةٌ في تحليل الأزمات والصّراعات تقضي بقراءة مؤشّرات الإنذار للاستشراف المبكّر لنشوب مواجهاتٍ مسلحة محتملة. وبين الجزائر والمغرب حاليا خمسة متحوّرات سياسية سلبية: تزايدُ وتيرة التسلح لدى الطرفين، والقطيعةُ الدبلوماسية التي أعلنتها الجزائر إزاء المغرب، ورفضُ الرئيس الجزائري عبد المجيد تبون أي مصالحة خليجية أو إدراج الخلاف مع المغرب في اجتماع وزراء الخارجية في جامعة الدول العربية، ودخولُ أطراف خارجية على الخطّ لتعميق هوّة الخلاف ورفع مستوى التصعيد والاستغلال الاستراتيجي للأزمة، فضلا عن سوداوية المناخ السياسي الإقليمي وتردّي الانطباعات السلبية في الخطاب الإعلامي لكلا الطرفين، خصوصا منذ قبول الرباط التطبيع مع إسرائيل في العاشر من ديسمبر/ كانون الأول 2020.

شهدت زيارة وزير الدفاع الإسرائيلي، بيني غانتس، الرباط أواخر الشهر الماضي (نوفمبر/ تشرين الثاني) توقيع «مذكّرة تفاهم»، هي الأولى من نوعها مع بلد عربي، لتزويد المغرب بمعدّات وإجراء تدريبات عسكرية مشتركة وتعزيز التعاون الاستخباراتي. وتندرج في سياق اتفاقات أبراهام على مرام إسرائيلية على المدين، المتوسط والبعيد، في غرب المتوسط. ويسعى المغرب إلى تعزيز قدراته الجوية بطائرات مسيّرة وأدوات تصويب الأهداف على الأرض من إسرائيل، فيما تعتبر الجزائر، التي تظل من دول المواجهة، هذا التقارب المغربي الإسرائيلي جلبا لـ«مؤامرة صهيونية» إلى حدود أراضيها.

ثمّة أكثر من استفهام بشأن دلالة «مذكرة التفاهم» المغربية الإسرائيلية في منطقة المغرب الكبير، وكيف تنغمس العلاقات المغربية الجزائرية تدريجيا في مجازفة المعادلة الصفرية وسباق التسلح من إسرائيل وروسيا ودول أخرى. وتبني حكومة نفتالي بينت على ما بدأه سلفه بنيامين نتنياهو في مسار اتفاقات أبراهام، بأن يكون توقيع اتفاقية التعاون العسكري مع المغرب «الحدث المهم للغاية، ما سيسمح لنا بالدخول في مشاريع مشتركة والسماح للصادرات الإسرائيلية الدفاعية بالوصول إلى المغرب بكل سهولة»، كما أوضح مسؤول في وزارة الدفاع الإسرائيلية.

كلما تدهورت علاقات الجوار بين الجزائر والمغرب، انتعشت الاستراتيجية الإسرائيلية في تمديد أذرعها العسكرية والأمنية من الشرق الأوسط والخليج إلى أبعد نقطةٍ ممكنةٍ في شمال أفريقيا. ويقول وكيل وزارة الدفاع الأميركية الأسبق (2004-2001)، والمستشار لدى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، دوف زاخيم، في مقالة نشرتها صحيفة ذا هيل The Hill الصادرة في واشنطن، إن «إسرائيل بعد ما يقرب من خمسة وسبعين عامًا تجد أخيرًا قبولًا في الشرق الأوسط». وتفي عبارة الشرق الأوسط في الخطاب الأميركي المنطقة الممتدة من المغرب إلى أفغانستان. ويعتد وزير الدفاع، غانتس، بأن مذكرة التفاهم مع المغرب غير مسبوقة، ولم تتوصل إسرائيل إلى مثلها مع دول عربية تربطها معها علاقاتٌ أمنيةٌ وثيقة واتفاقات سلام، مثل معاهدة السلام مع مصر عام 1979، واتفاق وادي عربة مع الأردن عام 1994. ويلاحظ رئيس حزب التجمع الوطني الديمقراطي في أراضي 48، جمال زحالقة، كيف أن الإعلام الإسرائيلي يحتفي بـ «اتفاق تفاهم عسكري وأمني ومخابراتي، لم يسبق للدولة العبرية أن وقعت مثله مع أي من دول التطبيع العربي. واستبشرت إسرائيل خيرا بأنها وضعت قدما ثابتة في منطقة شمال أفريقيا، تمكّنها، كما تدّعي من محاصرة التوسّع في الوجود الإيراني في القارّة السوداء».

السباق المغاربي على طريق التسلّح

تزداد وتيرة التسلح في الجزائر في ضوء ما يبدو توجّها داخل مجلس الدولة الأعلى في الجزائر نحو عسكرة الموقف إزاء الجار الغربي. وقد قال الرئيس تبّون، في مقابلة تلفزيونية فرنسية في يوليو/ تموز الماضي، إنه «لا يؤكّد ولا ينفي» عزم حكومته تشييد قاعدتين عسكريتين قرب الحدود مع المغرب. وتسعى الجزائر إلى اقتناء معدّاتٍ متقدّمة مثل طائرات سوخوي 57 و34 من روسيا بقيمة سبعة مليارات دولار، وهو ما ركّز عليه رئيس أركان الجيش الجزائري، سعيد شنقريحة، خلال حضوره مؤتمرا عن الأمن استضافته موسكو في يوليو/ تموز الماضي، وسط مساومات الكرملين بشأن سماح الجزائر لروسيا بالتمركز في منطقة الساحل.

يفيد موقع «أفريكا إنتليجنس» أن الجزائر وقعت صفقة لشراء 12 طائرة من طراز سوخوي 32، وهي نسخة من سوخوي 34 التي تبيعها روسيا، فيما تحاول أن تكون السبّاقة إلى اقتناء سوخوي 57 التي لم تبعها موسكو بعد إلى أي دولة. وتعد الجزائر أكبر مستوردٍ للأسلحة الروسية في أفريقيا بعد مصر والسودان وأنغولا. وتكتب مؤسسة «غلوبال باور» أن الجزائر، التي أضحت في المرتبة 28 من حيث القوة العسكرية من أصل 138 دولة عام 2020، تسعى إلى الحفاظ على مكانتها من خلال عمليات شراء متعدّدة لتحديث أجهزتها العسكرية وتوزيعها. وقد وسعت ترساناتها من الأسلحة بنسب مختلفة: روسيا بنسبة 69%، وألمانيا 12%، والصين 9.9%.

في المقابل، زاد هذا التسلّح لدى الجزائر وقرارها القطيعة الدبلوماسية مع المغرب، وتحلّل جبهة البوليساريو من اتفاق إطلاق النار الذي وقعته عام 1991، في مستوى قلق القيادة العسكرية المغربية. وتحاول الرباط اقتناء نظام الدفاع الجوي باتريوت أميركي الصنع، الذي يشمل نظام صواريخ أرض - جو متوسط المدى، مصمم لتحييد التهديدات الجوية وطائرة الاستطلاع من طراز G550 بعد أن وافقت وزارة الخارجية الأميركية على الصفقة أوائل العام، فضلا عن اقتناء المغرب 25 طائرة جديدة من طراز F-16 بميزانية إجمالية قدرها 2.8 مليار دولار، و24 طائرة هليكوبتر جديدة من طراز Apacheattack بقيمة 1.6 مليار دولار. وقد طلبت القوات المسلحة الملكية المغربية تخصيص تسعة مليارات دولار لشراء 25 طائرة F-16، و36 مروحية أباتشي ستساعدها على تعزيز قدراتها الدفاعية والهجومية. وتخطّط الرباط لامتلاك 48 طائرة من طراز F16 في المجموع، تكون مجهزة برادارات من الجيل الخامس، و36 مروحية أباتشي بحلول عام 2028.

يعزو المغرب هذا التسلّح إلى احتراسه من أن الجيش الجزائري يملك منظومة S-300 الروسية. ويعلق أهمية خاصة على الاتفاقية العسكرية الاستراتيجية التي وقعها مع وزارة الدفاع الأميركية (البنتاغون)، يستمر سريانها حتى عام 2030. وثمّة مؤشّر آخر على تزايد التصعيد جاء ضمن تقرير صادر عن استخبارات الدفاع الاستراتيجي Strategic Defense Intelligence، وهي مؤسسة أبحاث في مجال التكنولوجيا العسكرية، يفيد بأن «المغرب يستعد ليصبح الجيش الرائد في أفريقيا عام 2022 بفضل ما يقتنيه من معدّات متقدّمة، وهو استشرافٌ يرجّح احتمال أن يغدو أقوى جيش في أفريقيا بما يتجاوز مرتبة الجيش الجزائري». وضعٌ جديدٌ قديمٌ في التنافس والتهافت على أحدث الأسلحة والمعدّات المتقدّمة الممكنة من الدول العظمى، وهو مشهدٌ يعيد إلى الذاكرة حروب السبعينات بين بعض الدول المضطربة في أفريقيا وأميركا اللاتينية. لكن الأهم هو إلى أين ستنتهي كرة التسلح المتدحرجة بين البلدين الجارين وتحالفاتهما الإقليمية والدولية؟. يميل الرأي السائد في أدبيات سباق التسلح إلى أن الأسباب الخارجية تفسّر سباقات التسلح التي تتفاعل فيها الدول مع التهديد الذي يشكله تكديس أسلحة الخصم. وعلى سبيل المثال، يقول باري بوزان وإريك هيرينغ في كتابهما «ديناميكية الأسلحة في السياسة العالمية» (The Arms Dynamic in World Politics) إن «الافتراض الأساسي لنموذج الفعل ورد الفعل هو أن الدول تعزّز تسليحها بسبب التهديدات التي تتصوّرها من الدول الأخرى. وتشرح النظرية المتضمنة في النموذج ديناميكية الأسلحة على أنها مدفوعة بشكل أساسي بعوامل خارجية عن الحالة». في الوقت ذاته، لا تزال دراسة صموئيل هنتنغتون من أكثر الأعمال تأثيرًا وقراءة على نطاق واسع في سباقات التسلح، فبعد تحليله 13 من سباقات التسلح، حدّد مجموعتين من العلاقات بين سباقات التسلح والحرب: «أولاً، هناك علاقة عكسية بين طول سباق التسلح واحتمال أن ينتهي بالحرب. هذا لأن نقطة الخطر، وأحيانا نقطتين، تحدثان في بداية كل سباق. بمجرّد أن تبدأ الدولة تحديًا من خلال إطلاق عملية الحشد، يجب على الدولة التي تواجه التحدّي أن تقرّر ما إذا كان يمكنها الحصول على حلفاء و/ أو نشر أسلحة كافية لاستعادة التوازن العسكري السابق. إذا وجدت الدولة المعادية أنها لا تستطيع، فقد تستنتج أن شنّ حرب وقائية هو أفضل خيار لها».

> كلّما تدهورت علاقات الجوار بين الجزائر والمغرب، انتعشت الاستراتيجية الإسرائيلية في تمديد أذرعها
>
> تسعى الجزائر إلى اقتناء معدّاتٍ متقدّمة مثل طائرات سوخوي 57 و34 من روسيا بقيمة سبعة مليارات دولار
>
> القطيعة الدبلوماسية التي أعلنتها الجزائر ومنع الطائرات المغربية من التحليق في أجوائها منحدر غير مسبوق

الجوار المنكسر، والمربّع المسموم

تجسّد القطيعة الدبلوماسية التي أعلنتها الجزائر ومنع الطائرات المغربية من التحليق في أجوائها منحدرا غير مسبوق في تاريخ العلاقات بين البلدين. وتنشر صحيفة لكسبريسيون في باريس مقالات متعدّدة، تشير إلى أنّ «الموساد بات قريبا من الحدود الجزائرية، ما سيخلف عواقب جيو -سياسية وخيمة على أمنها»، فوصل الجوار الجزائري المغربي خريف السياسات المتنافرة وإنتاج العدائية المتبادلة بشكل متواتر، فيما يغلب منطق التشنّج وتضيع البوصلة بفعل التشبّع بضرورة التسلح والقطيعة وترويج خطاب «صراع وجودي»، في جوار سرمدي أزلي بحمرة الأرض وزرقة البحر وصفاء السماء المشتركة، وإنْ انتفخت أوداج الأنفة السياسية في الجزائر والرباط.

يساهم غياب قنوات الحوار بين الجزائر والرباط بشكل سلبي في تباين التأويلات وتضخيم المؤامرات المتخيلة أكثر من حقيقة المواقف المتبادلة. ويجسّد الموقف الراهن بين الجارتين مدى الانغماس اللاعقلاني في منطق المحاور المتقابلة، وما يدور في خلد النخب السياسية والعسكرية بأنه «جوار ميّت». ويرتفع مستوى التسلّح، وتدخل مواقف التصعيد مرحلة التلويح بالعدائيات المفترضة وإسقاطاتها غير الواقعية أكثر من طبيعة التهديدات القائمة، وفسح الطريق أمام استراتيجية إسرائيل، أكثر من أي قوة إقليمية أو دولية، في المنطقة. ويفاخر الموقف الرسمي الإسرائيلي بمقولة «إسرائيل والمغرب شريكان مهمّان في المحور البراغماتي الإيجابي، مقابل المحور المعاكس الذي تشارك فيها الجزائر وإيران».

على هذا المنوال، يزداد التحفيز الإسرائيلي على إنتاج نظام عداء سوداوي جديد، وبالتالي نفخه في وسائل الإعلام لدى الطرفين: «محور مغربي إسرائيلي» يعتبره الجزائريون تهديدا مباشرا لسيادتهم واستقرارهم، مقابل «محور جزائري إيراني» ترسمه الاستراتيجية الإسرائيلية، ويتشبع به جل المغاربة على أنه تهديد «حقيقي» لسيادتهم واستقرارهم. هي محاور عداء بديلة ومنصّات صراع محتملة، إذا تغرّست مشاعر الريبة المشتركة عميقا بين الجزائريين والمغاربة، وازداد تخندق النخب العسكرية والأمنية نفسيا وذهنيا في «مؤامرة» الطّرف الآخر. وكما هو الحال عند انغماس أي طرفٍ من أطراف النزاع في التفكير العدائي، يميل ميزان الأحكام المعيارية نحو استعراض «مكارمنا ومحاسن سلوكنا» مقابل التلويح بـ«خطاياهم ورذائلهم» ضمن معادلة «الذات الملائكية» ضد «الآخر الشيطاني» بإنتاج سرديات الاختلاف المتخيلة، كإسقاطات تلقائية على ميزان العداء والتقابل غير المتوازن.

يلاحظ علماء النفس الاجتماعي وفض الصراعات وجود قرينة بين إنتاج العداء وتعزيز تماسك المجموعة، خصوصا في حقب التحدّيات الداخلية، فأوضح سيغموند فرويد، في ورقته «لماذا الحرب»، لألبرت أينشتاين، أنه من أجل تماسك المجتمع، فإن تحديد المجموعة الخارجية أمر بالغ الأهمية. ويجادل فرويد بأنه يمكن لأعضاء المجموعة إزاحة عدوانيتهم، وبذلك، فإنهم يحرفون الدوافع المدمرة التي كانت موجهة في الأصل نحو أعضاء مجموعتهم إلى الخارج».

القطيعة العبثية في جوار استراتيجي

على الرغم من وجود منطقة منزوعة السلاح بين الكوريتين الشمالية، لم تمُت الدبلوماسية يوما، ولم تتجمّد الحدود في ما يعتبر أخطر منطقة في العالم. وعلى الرغم من القطيعة بين بيونغ يانغ وسيول وواشنطن بسبب تداعيات الحرب الكورية منذ 1953، تتحرّك الدبلوماسية من حين إلى آخر ضمن بعثات وساطات من بعض الشخصيات، مثل الرئيس الأسبق بيل كلينتون، لإطلاق سراح صحافيين كانوا محتجزين في بيونغ يانغ، غير أن وضع شبه الجزيرة الكورية لا يتفوق على بدعة جديدة متنامية حاليا في منطقة المغرب الكبير، فقد ذهب الرئيس تبّون إلى أبعد مما تنزع إليه راديكالية الحروب الباردة، وتمسك بأن «الجزائر لا تقبل أي وساطةٍ مع المغرب، ورفضنا إدراجها في المؤتمر الوزاري لجامعة الدول العربية».

هي حلقة أخرى في سلسلة التنكّر لواقع الجوار الاستراتيجي والارتباط التاريخي وبقية الروابط الثقافية والمجتمعية، وحتى القواسم المشتركة في تحدّيات التنمية في البلدين. هناك قرار قطع العلاقات مع المغرب، ومنع الطيران المدني والعسكري المغربي من التحليق في الأجواء الجزائرية في الأسابيع القليلة الماضية. ولكن تشبع الرئيس تبّون، ومن خلفه أعضاء المجلس الأعلى للأمن، بهذا الرفض لأي مبادرة عربية لرأب الصدع في العلاقات الجزائرية المغربية لا يدل على حكمةٍ سياسيةٍ وطنيةٍ أو بعد نظر دبلوماسي، ولا عن حسّ استراتيجي يحفظ ماء الوجه، بقدر ما ينمّ عن تشنج وانفعال غير عقلاني، بسبب ما يبدو صدمةً كبرى متخيلةً منذ عقود.

(أستاذ جامعي مغربي في واشنطن)

التبريرات التسعة

لا يزال قرار القطيعة الدبلوماسية الذي اتخذته الجزائر إزاء المغرب في الرابع عشر من أغسطس الماضي يثير علامات استفهام عدة في فهم ما فيه من أسباب منطقية أو غير منطقية. وقد عزا وزير خارجية الجزائر، رمطان لعمامرة، القرار إلى تسعة تبريرات تتراكم فوق بعضها، بفعل وتيرة الانطباعات السلبية المتوالدة في شيطنة الجار. تسعةُ محاورَ تبريريةٍ اجتمعت في تصريح لعمامرة وقف مقولة «ما أفاض الكأس» على ما يبدو، بمنطق انتقائي متدرج في تركيب السببية الكبرى meta-causality لإعلان القطيعة.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني